

أثر التماثل الصوتي في التوازن الإيقاعي

د. فائزة محمد محمود المشهداني

جامعة الموصل / كلية التربية الأساسية

قسم اللغة العربية

مدخل:

إن انتظام الاصوات اللغوية في السياق له أثر واضح في إبراز التماثل الصوتي الذي يعد ركيزة أساسية في خلق الاتزان الإيقاعي، فلا يمكن لأي لغة من اللغات أن تكون معبرة عن معانيها بشكل منتظم ان لم تكن خاضعة في أنظمتها لنوع من التناسق الإيقاعي. واللغة العربية تمتلك من التعابير ما يجعلها متجددة دائماً ومدخرة في داخلها طاقات تعبيرية تظهر من خلال الانساق المكونة للسياقات الكلامية، فلا يمكن أن تؤدي اللفظة دلالة من دون أخواتها لأن " اللفظة منفردة لها معنى محدد وأفق ضيق لا يتعدى المعجم أما إذا كانت مع أخواتها في سياقها اللغوي اللازم وبحسب مواضعها في النظم فلها امكانات متعددة للتعبير"^(١).

فالآتزان الصوتي يحدث من خلال التماثلات الصوتية سواء أكانت هذه التماثلات على مستوى الفونيم أم على مستوى المقاطع الصوتية امتداداً إلى التركيب وإذا نظرنا إلى النص القرآني نجد، أن التماثلات الصوتية فيه تتجلى في عملية الاتزان الصوتي ومن خلال الانسجام التناسقي للآيات القرآنية، وكذلك من خلال انتظام عناصر اللغة اصواتاً وكلمات وجمل.

١. التشكيل الصوتي

أثر التماثل الصوتي في التوازن الإيقاعي

د. فائزة محمد محمود المشهداني

إن التشكيل الصوتي لأي لغة يخضع في الأساس للانتقاء والتنسيق مما يخلق تمايزاً صوتياً، لهذا يعد البناء الصوتي العنصر الأساس في التشكيل التركيبي سواء على مستوى الكلمة أو على مستوى الجملة إمتداداً الى السياق، فعن طريق الترابط بين المستويات يتشكل التركيب، لكن هذا التركيب لا يمكن أن يؤدي عمله الإبداعي والجمالي إلا من خلال التعالق الحاصل على جميع المستويات، فجميع التأثيرات المتأتية من هذا التعالق في الكلام ترتبط بشكل أو بآخر بالمستوى الصوتي و تناسق... الكلام وتآلفه، ينبع من الأصوات في تناسقها وتآلفها^(٢).

إن دراسة الأصوات اللغوية ودلالة هذه الأصوات يخضع لجملة من المؤثرات منها ما هو نابع من الطبيعة التشكيلية للصوت، ومنها ما هو مرتبط بعوامل خارجية تتمثل بناطق الصوت ومنتقيه. فالمادة الأولية للألفاظ هي الأصوات ووضع هذه الأصوات في أطر كلامية معبرة ومؤثرة هي التي تؤدي المعنى المطلوب من دون هذه الأطر الدلالية المعبرة عن المعاني يصبح الكلام مجرد أصوات لا معنى لها، فالأصوات تكتسب معناها من خلال دلالتها التعبيرية داخل التشكيل الكلامي الذي يخضع لجملة من القوانين منها ما هو وضعي، أي أنه مرتبط بالناحية التنظيمية والتراتبية للجملة وهذا مرتبط بالمبدع، ومنها ما هو وظيفي يكتسب دلالاته من خلال الوظيفة النحوية والصرفية للغة، وكل هذا خاضع بشكلٍ أو بآخر لعمل المبدع وتأثيره في النص.

إن اللغة بمكوناتها تعد خزيناً للمبدع يستقي منها تعابيره وتراكيبه اللغوية بشكلٍ يتناسب مع موضوعه المطروق، فلكل مبدع طريقته في التعامل مع اللغة وإبداعه خاضع للكيفية التي يوظف بها اللغة، كذلك خاضع للأنظمة الصوتية التي يركب منها ألفاظه وعباراته، وكذلك للأطر الموسيقية التي يختارها للتعبير عن موضوعه لاسيما عندما يكون المبدع (شاعراً) فالجانب الموسيقي له دور كبير في إبراز شاعريته، فضلاً عن الدلالة اللفظية لتراكيبه الشعرية، فالشعر والموسيقى ((يعتمدان الأداء الصوتي وإن اختلفت لغتاهما وقدرتاها على الأداء))^(٣).

والمكون الصوتي يشترك مع غيره في البناء الداخلي للنص، خصوصاً عندما تكون هناك ضوابط معينة من الآليات اللغوية التي تعمل على تحقيق الإتحاد بين هذه الآليات بما فيها من أدوات، إذ نلاحظ من خلال هذا الإتحاد إنسجاماً جمالياً كافياً في التشكيل النصي، فمن خلال المكون الصوتي الذي يعد ضابطاً للنص يمكن أن نجد عدم التناظر والموافقة والتماثل والتلاحم بين أجزاء النص.

والنظام الصوتي يستدعي قرائن إيحائية تنطلق منه، أي أن الأبعاد الصوتية الناتجة عن هذا النظام الصوتي تتناسب مع الوحدات التركيبية للنص أي الغرض الذي من أجله وجد النص، فالأنساق الصوتية مرتبطة بدرجة تحقق الإنسجام بين الوحدات الصوتية وعدم تنافرها، وعدم التناظر يعكس مدى النظام التركيبي للأصوات اللغوية، وكذلك إظهار القيم الجمالية التي ترتبط إرتباطاً وثيقاً بإيقاعية الأصوات، والأصوات لا تعبر عن ذاتها وإنما تعبر عن معانيها داخل سياقها، ولعل السياق القرآني أكبر دليل على ذلك، فالحروف والأصوات داخل القرآن تعد البؤرة أو النواة لتشكيل النص القرآني، فالحواميم (حم) والطواسيم (طس) وكذلك (الر) (كهيعص)... الخ، كل هذه حروف لا يمكن أن تؤدي معناها إذا ذكرت خارج النص القرآني، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على خصوصية هذا النص في حروفه وأصواته وألفاظه وجمله وسياقه، فالأصوات في تألفها وإنسجامها تشكل إيقاعاً إنسيابياً على إعتبار أنها "نظام منسق تحكمه علاقات خاصة في هذه اللغة.. فهناك قواعد تتجاوز النسيج المقطعي القائم على توالي الصوامت والصوائت وهي التي تحدد ذلك الإنسجام" (٤).

فالقرآن الكريم يتميز باعجازه الصوتي الذي يتمثل في العلاقات الداخلية المنظمة للبنية الصوتية^(٥) ومن خلال التحليل الدقيق لبنية الألفاظ القرآنية نجد أننا أراء جملة من المتوازيات الصوتية والمقطعية، فالفواصل القرآنية تعتمد في أغلبها على فواصل فونيمية ومقطعية وهذه الفواصل لها دور كبير في التشكيل الإيقاعي للبنية الإيقاعية، إذ نجد أن ما تحدته هذه الفواصل من تناسق وإنسجام شكل بدوره إمتيازاً كبيراً، فضلاً عن ما شكله السياق ككل في بنيته الصوتية من إيقاعية تناسبية.

أثر التماثل الصوتي في التوازن الإيقاعي

د. فائزة محمد محمود المشهداني

فالبنية اللغوية تشكل في تنظيمها "الفونولوجي وحدة متكاملة، تخضع لمجموعة من القوانين والأنظمة الصوتية، والصرفية، والدلالية"^(١) وهذا القول يجعلنا في معالجتنا لأي نص نخضعه لهذه المستويات أي الصوتي والصرفي والدلالي، لكن ما يهمنا بهذا الصدد المستوى الصوتي الذي لا بد أنه يعتمد في بنيته على المستويين الآخرين بشكلٍ أو بآخر، ومثال ذلك ما نجده في بعض الأفعال الواردة في النصوص القرآنية، فعند معالجتنا لها صوتياً نقودنا الى معالجة ثانية صرفية وثالثة دلالية وهذا ان دلّ على شيء فإنما يدل على تداخل هذه المستويات فيما بينها لتكون النتيجة في النهاية خدمة البنية اللغوية الكلية، مثال ذلك لفظة (زحزح) الواردة في سورتي آل عمران الآية ١٨٥ وسورة البقرة الآية ٩٦^(٧) إذ نجد أن البنية اللغوية لهذا الفعل المضعف قد خلق مزيجاً صوتياً بين صوتين أولهما (الزاي) المجهور والثاني (الحاء) المهموس، فالبنية الصوتية لم تأت من فراغ وإنما جاءت نتيجة التعالق الدلالي والصرفي، وهذا ينطبق على الكثير من الأفعال الواردة في القرآن الكريم. ففي التشكيل الإيقاعي نجد أننا عند المعالجة الصوتية للفظه من الألفاظ ننظر إليها من خلال الأصوات المكونة لتلك اللفظة وكذلك من خلال الزيادات الداخلة عليها، فهذه الزيادة قد تشكل في المدلول اللغوي زيادات نحوية لها موقعها النحوي في السياق، فضلاً عن ما تحويه هذه اللفظة من دلالة لغوية، كل هذا يجعلنا ننظر الى الألفاظ من خلال ما تتشكل منه أصوات لغوية لها مدلولها الصوتي، فضلاً عن مدلولها الصرفي والدلالي، فكل لفظة بنية صوتية وهذه البنية تخضع للزيادات التي تؤدي في نهاية المطاف الى زيادات صوتية وهذا ما يهمنا بهذا الصدد.

٢. التماثل الصوتي وأثره في الإيقاع

إن التتابع الصوتي في السلسلة الكلامية نابع من التجاور والإلتصاق بين الوحدات الصوتية المكونة للألفاظ، فهذه الوحدات المكونة للبنى الصوتية غالباً ما تتنوع

وتتأثر فيما بينها، فضلاً عن أن الكلام لا يتحدد إلا من خلالها، فالبناء الصوتي لأي لغة خاضع لمدى إنسجام العناصر التكوينية لها، واللغة العربية واحدة من اللغات المحددة العناصر، لكن هذا التحديد لم يحد من تطورها، وإنما أثبتت هذه اللغة على مر العصور كينونتها التطورية من خلال تآلف حروفها وإنسجام ألفاظها، فهي لغة وجدت لنفسها صيغة تتناسب وطبيعتها الصوتية. والسمات الصوتية التي تتمتع بها هذه اللغة تختلف بشكلٍ جذري عن اللغات الأخرى فلم تعتمد هذه اللغة في مسيرتها اللغوية على شكلٍ محدد، وإنما اتخذت من التنوع شكلاً مميزاً لها، فهي لا تعتمد على شكل معين في نطقها، وإنما لها أشكال عدة منها ما هو راجع للناحية الشكلية للحرف ومنها ما هو نابع من طبيعة الصوت النطقية ومنها ما هو متأرجح بين هذا وذاك.

فالإختلاف في دلالة اللفظة يولد بلاشك إختلافاً في أبنيتها الصوتية خاصة عندما تكون هذه الصياغة خاضعة في تشكيلتها اللغوية لهذه الإختلافات، وكل هذا راجع بشكلٍ أو بآخر الى "ما تفرزه الأصوات من إيقاع حين تُضم لبعضها وفق نسق تركيبى، لإنتاج بيان لغوي معين" (٨).

والنسق التركيبى لا يأتي من خلال شكل محدد، أي أن النسق التركيبى للألفاظ المكونة لأي سياق لا يعتمد على صيغة ثابتة، وإنما قد يعتمد المماثلة كما قد يعتمد المخالفة، وأقصد بالمخالفة هنا أي أن تركيبية لفظية تخضع في تركيبها اللغوية للنظام الدلالي بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، فلا يمكن للسياق مثلاً إن يعتمد في بنائه على نظام المماثلة الصوتية أو نظام المخالفة الصوتية وإنما يتحدد الكلام وفقاً لأصوات الحروف الدالة على معاني مفهومة ومن مخارج مختلفة (٩).

نفهم مما سبق أن لمخارج الحروف دوراً بارزاً في تحديد الصوت المنطوق ومن ثم تحديد مدى فاعليته في التشكيلية الكلامية فإذا كان "الصوت مع نقيضه اظهر منه مع قريبه ولصيقه" (١٠) فكيف يمكن أن ننظر الى عملية التماثل الصوتي وكيف يمكن أن يؤثر هذا التماثل في إيقاعية الكلام. يمكننا القول أن ما يحدد مدى مواعمة الأصوات فيما بينها هو السياق أولاً وأخراً، فالهدف الصوتي هو المقصود، إذ إن التقارب الصوتي لمخارج

أثر التماثل الصوتي في التوازن الإيقاعي

د. فائزة محمد محمود المشهداني

الحروف يولد تماثلاً صوتياً عند النطق بها، كما أن سمة الصوت تؤثر تأثيراً مباشراً أيضاً على عملية النطق، فالأصوات في تماثلها تتأثر من خلال علاقاتها مع بعضها في تجاورها ونطقها من خلال شدة الصوت المؤثر وقوته، وكلما كان الصوت المؤثر أقوى كان تأثيره بارزاً وواضحاً على الأصوات المجاور له، فالتماثل إما يكون جزئياً وإما يكون كلياً، والأول يحدث من خلال المشابهة الجزئية بين صوت وآخر، وهذه المشابهة لا تصل لدرجة التبادل الصوتي في أثناء عملية النطق، وإنما يحدث هناك تقارب صوتي ما بين الجهر والهمس وكما معروف فإن الكثرة "الغالبية من الأصوات اللغوية في كل كلام مجهورة، ومن الطبيعي أن تكون كذلك وإلا فقدت اللغة عنصرها الموسيقي ورينيتها الخاص"^(١١). فالجهر هو الذي يمنح الأصوات رنينها وإيقاعها بعكس الهمس الذي ينخفض فيه الرنين^(١٢)، لكن هذا لا يعني أن الأصوات المهموسة ليس لها إيقاع، وإنما تنخفض فيها، فمثلاً قوله تعالى (وَهُمْ يُصْطَرِّخُونَ فِيهَا)، فنجد ان لفظة يصطرخون إحتوت صوتاً مؤثراً ومتصلاً بالصوت المجاور، فالصاد في اللفظ قلبت سينا بتأثير الطاء التي بعدها فكأننا نسمع بدلاً من الصاد سين

يصطرخون ← يصطرخون

مثلها مثل صراط ← سراط

ومثلها مثل اصطبر ← اسطبر

وعكسها قلب السين صاد كما في

مسيطر ← مصيطر

فهذه المماثلة التجاورية التي حدثت في هذه الألفاظ الأنفة الذكر كانت نتيجة التأثير الصوتي للحرف اللاحق على الحرف السابق.

والتجاور الحروف يولد مماثلة صوتية فلفظة (مُستطر) الواردة في سورة القمر (الآية ٥٣) فيها من التجاورات الصوتية ما جعل فيها مماثلة مضاعفة عن غيرها من الالفاظ وكأن صوت السين المهموس قد منح خصوصية صوتية من خلال تجاوره مع

الصوتين التاء والطاء، فكان تأثير كل منهما على الآخر واضحاً في خلق هذه المماثلة الصوتية الآتية من خلال التجاور ومن خلال الهمس في الاصوات، فالتمائل مثلما ينتج عن الاصوات نجده ايضا يتأتى عبر التردد الصوتي لبعض هذه الاصوات، فقد يتولد التماثل من خلال تكرار بعض الاصوات (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) [سورة التكوير، الآيات ١٥-١٩] فهذا التتابع الصوتي لحرف (السين) والمقاطع المجاورة له خلق إيقاعاً مهموساً تأتي من ترده (١٣).

فالتمائل الصوتي لهذا الحرف المهموس جاء من خلال اقتران الهمس بمعنى الخفاء، والحروف المهموسة تتجلى في الصوت الذي لا تتذبذب الاوتار الصوتية في حال النطق به^(١٤)، وعنصر التكرار لهذه الاصوات المهموسة اضفى على السياق طاقة تعبيرية رسمت لنا صورة نفسية معبرة بما اشتمل عليه الحرف من معنى انسجم مع التتابع الصوتي.

وكذلك مما يدخل في باب المماثلة الصوتية ما يحدث من إدغام نطقي في حالة نطق بعض الحروف المتجاورة مع بعضها كما في إدغام النون الساكنة مثال ذلك قوله تعالى: (مِنْ رَّبِّهِمْ) و (مِنْ صَوْتِكَ) و (وَمَنْ لَمْ يُتَّبِعْ).

فهذا الإدغام يولد نوعاً من الإيقاعية التخفيفية في نطق هذه السياقات مما يخلق إيقاعية متميزة، والإدغام يعد من أعلى صور المماثلة في الأصوات. إذ أننا من خلال ما يحدث من إدغام بين الحروف نلاحظ صوراً عدة للتمائل الصوتي وهذا الإدغام النطقي القصد منه التخفيف - كما سبق أن ذكرنا - فليس القصد منه "إدخاله فيه على الحقيقة، بل هو إيصاله به من غير أن يُفكَّ بينهما"^(١٥).

فالتقارب الصوتي لمخارج الحروف يولد تماثلاً صوتياً عند النطق بها، كما أن سمة الصوت تؤثر تأثيراً مباشراً أيضاً على شدة الصوت، والسياق القرآني إتخذ من الأبعاد الصوتية للألفاظ وقوتها الدلالية مساراً للتعبير عن المعنى، فلكل مفردة في هذا

أثر التماثل الصوتي في التوازن الإيقاعي

د. فائزة محمد محمود المشهداني

السياق قدرة إيحائية تتضح من خلال إيقاعية اللفظة وموسيقية حروفها، فالصوت في البناء التركيبي لألفاظ القرآن يعد كاشفاً فعلاً عن مدى فاعلية التعبير فيزداد الصوت قوة وشدة في السياق الذي يتطلب ذلك فقله تعالى: (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) [القمر: الآية ٤٢] وقوله: (فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) [الكهف: جزء من الآية ٤٥] فقد عدل السياق عن قول (قادر) الى (مقتدر)، على الرغم من كون اللفظتين تدلان على القوة، لكنه جاء بلفظة (مقتدر) بزيادة الميم الذي يتميز بقوة اسماعية عالية وصوت التاء الذي يفيد الدلالة على الفاعلية^(١٦). وهذان الصوتان جاء ليعبرا عن فخامة هذه المقدره بفخامة الجرس الإيقاعي الذي تميزت به هذه اللفظة عن نظيرتها، فالزيادة الحرفية ولدت زيادة في المعنى وزيادة في القوة "فمقتدر هنا أبلغ من قادر، وإنما عدل اليه للدلالة على التفخيم للأمر وشدة الأخذ... أو للدلالة على بسط القدرة"^(١٧).

إن السياق التركيبي للألفاظ هو الذي يحدد إيقاعية هذه الألفاظ، فضلاً عن مدى إنسجامها وملاءمتها للسياق وقدرتها على تحقيق التوازن، ويتحقق كل ذلك من خلال الطبيعة الموسيقية والإيحائية للأصوات ومدى تماثلها الصوتي الذي يخلق جواً تعبيرياً مناسباً مع السياق العام للآيات وأمثلة ذلك كثيرة، فقله تعالى (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) (٧٨) [طه: الآية: ٧٨]

فالتماثل في هذه الآية جاء من خلال تكرار الألفاظ بمقاطعها، وكذلك من خلال الانتظام النغمي للأصوات، المكونة لهذه اللفظة (غشيهم)

غ	ش	ي	ه	م
مجهور	مهموس	مجهور (لين)	مهموس	مجهور

فالترابنية الإيقاعية جاءت من خلال ذلك الإنتظام ما بين الأصوات، وهذا النسق الموسيقي الذي يمكن الإحساس به ليس فقط من خلال ترابنية الأصوات، وإنما من خلال الدلالة اللفظية لهذه الألفاظ التي تصور الثقل النفسي من جراء مصيرهم المحتوم بالموت،

لفظة (غشيهم) زائداً دلالة (اليم) كل هذا دل على وقوع العذاب بهم، والمراعاة الصوتية كانت باعثاً لمراعاة لفظية فيها من الدلالة ما يوازي بينهما، فأعطت بذلك الأصوات في سياقها الدلالي صورة معبرة عن المشهد.

والتماثل بالوحدات الصوتية يولد ايقاعاً متتابعاً يمكن للمتلقى ان يلمسه من خلال النسق الصوتي، فقرة الصوت المتأنتية من تماثله مثلاً بالتضعيف تولد قوة في المعنى، فلفظة (الطامة) الواردة في سورة النازعات (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى) [الآية: ٣٤] وكذلك لفظة (الصاخة) الواردة في سورة عبس (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ) [الآية: ٣٣] وكذلك لفظة (المدثر) (بِأَيِّهَا الْمُدَّثِرُ) [سورة المدثر، الآية: ١] ولفظة المزمّل (بِأَيِّهَا الْمَزْمَلُ) [سورة المزمّل، الآية: ١] ولفظة مدكر في قوله تعالى (وَلَقَدْ سَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) [سورة القمر، الآية: ١٧] وقد تكررت هذه اللفظة على مدار السورة، فالتضعيف الصوتي قد اعطى فخامة في الجرس الإيقاعي لهذه الالفاظ، وكأن هذه الحروف جاء لتؤكد من خلال هذا التضعيف الحرفي القوة الدلالية لهذه الالفاظ، فالتماثل الصوتي منح السياق شدة صوتية لا يمكن اغفالها باي شكل، فالاصوات تابعة للمعاني "قمتى قويت قويت ومتى ضعفت ضعفت ويكفيك من ذلك قولهم قطع وقطع، وكسر وكسر زادوا في الصوت لزيادة المعنى، واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه" (١٨).

إذ إن تأثير البنائية التركيبية للكلمة يظهر من خلال الوحدات التكوينية لها، وأي زيادة أو نقصان في النسق البنائي تشعرك بفقدان شي أو نقصانه.

٣. الفاصلة وأثرها في التوازن الإيقاعي

إن خلق التوازن في الإيقاع يخضع لجملة من الأمور خاصة عندما يتعلق الأمر بنص قرآني، فاللفظة القرآنية تمتلك مقومات موسيقية ونغمية تختلف عن غيرها، إذ إن البناء التركيبي لهذا النص يكشف عن أبعاد صوتية، فنجد التماثل والتلاؤم والإنسجام بين الوحدات الصوتية، وكل صوت من الأصوات المكونة للألفاظ ينسجم ويتوافق مع الأبعاد الدلالية للسياق، فمثلاً في سورة مريم يبدأ السياق القرآني بحرف (الكاف) (كهيعص)، وقد

أثر التماثل الصوتي في التوازن الإيقاعي

د. فائزة محمد محمود المشهداني

شكل هذا الحرف بؤرة صوتية، والكاف كما هو معروف صوت شديد إنفجاري "والأصوات الإنفجارية هي ما اصطلح القدماء على تسميته بالصوت الشديد"^(١٩). وقد ناسب هذا الحرف (الكاف) ما ورد في سياق هذه السورة، مشكلاً جرساً موسيقياً، إذ عبر تدفق الكاف تبعاً على مدار السورة، فلكل صوت في اللغة العربية معنى خاص ودلالة كامنة ودلالة الكاف كامنة في محاكاة المخاطب، وهذه المحاكاة تستوجب الإمتداد والتواصل. ولعل ما تضمنه الفاصلة القرآنية من إيقاعية يجعل للسياق القرآني خصوصية متميزة، فالقرآن يمتاز بإسلوب إيقاعي ينفرد فيه عن سائر الكتب^(٢٠) والفاصلة عبارة عن تمفصلات صوتية متكررة أو مقاطع صوتية تتردد في نهاية آياته وتعد سمة صوتية بارزة في السياق القرآني، معتمدة بذلك على "التوازي الصوتي الذي يتلازم - غالباً - مع التوازي الدلالي"^(٢١)، فعلى المستوى الصوتي نجد أن الفاصلة تخلق نوعاً من التشابه الإيقاعي لكنه تشابه يأخذ مداه الإتساعي من خلال الدور المحور الذي تلعبه هذه الفاصلة في تحريك النص وتوجيه دلالاته وحتى تنويع الإيقاع، صحيح أن هذه الفاصلة قد تعتمد التكرار والتشابه، لكنه تكرار يتولد من خلال التنوع، بحيث يصبح هذا التشابه تعبيراً حياً عن التدفقات الإيقاعية الملونة الدلالات أي يعبر النص عن إمكانية مفتوحة، فهو "لا يستقر على صياغة واحدة فيدخل على هذه الأساليب... من التلوينات... ما يجتمع فيه الإحساس.. بحدوث التغيير"^(٢٢) وتكرار الفاصلة في القرآن الكريم يمثل جزءاً من التوازن الإيقاعي، فالتكرار يؤدي وظيفة صوتية ويعمل على خلق إيقاعية متوازنة للسياق القرآني سواء إعتد هذا التكرار على تكرار الفاصلة الفونيمية أو تكرار الفاصلة المقطعية، والفونيم في أبسط تعريفاته "هو ذلك العنصر الذي يكون جزءاً أساسياً من الكلمة المفردة وذلك كالباء والتاء..."^(٢٣) وتكرار هذه الفاصلة يولد نوعاً من المماثلة النطقية. فالفاصلة الفونيمية تشتغل من خلال الحرف الأخير للآية، إذ نجد أن هذا الحرف بتكراره الفونيمي يخلق نوعاً من المماثلة اللفظية. ولو تتبعنا الفاصلة على مدار القرآن الكريم لوجدنا أنها تخلق توازناً إيقاعياً مبعثه المماثلة الصوتية، إذ نجد تلوناً إيقاعياً في السياق القرآني ناتج من ذلك، فهناك سور تختلف فيها الفواصل باختلاف الدلالة المراد التعبير عنها، فضلاً عن وجود سور كاملة طويلة قائمة على فاصلة فونيمية واحدة كما في سورة الكهف، إذ

قامت هذه السورة قد في سياقها الكلي على فونيم واحد وهو حرف المد (الألف)، مثال ذلك (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِجَابًا) [الآية - ١ -] إذ تكرر هذا الفونيم (١٠٩)، فالبنية الصوتية لهذا الفونيم فيها مساحة صوتية تصل لإمتدادات عدة إستناداً الى درجة إنفتاح آلة النطق عند إنتاج تلك الأصوات، فقد لوحظ أن مجموعة من الأصوات لا يحدث في أثناء إنتاجها إلا إعتراض محدود على مجرى النفس، مع إهتزاز الوترين، فيمر الهواء حراً خلال الحلق والقم، من غير أن يحدث إحتكاكاً مسموعاً في مخرج الصوت^(٢٤) فالتوازن الإيقاعي الذي نلحظه من خلال الفاصلة الفونيمية يخلق نوعاً من التوازي على مستوى الفونيم وهو توازي جزئي إذا ما قورن بالتوازي الذي يمكن أن نلحظه في السياق القرآني من خلال الفاصلة المقطعية أو من خلال التوازي التركيبي الذي يقوم أساساً على توازيات صرفية ونحوية، فقوله تعالى في سورة طه [٢٦ - ٢٥] (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) فيه توازٍ إيقاعي جاء من خلال التوازي بين البنية الصوتية للآية الأولى (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) وبين البنية الصوتية الثانية (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) إذ نلحظ أن السياق جاء بنبرة صوتية متوازنة وإيقاع متوازن فالقضية الدعائية المطروحة من خلال هذا السياق هو ما اوجد هذا التوازن، فضلاً عن الفاصلة المقطعية المتمثلة بالمقطع الأخير من السياقين وأيضاً ما أضفاه الوزن المتوازي من إيقاعية متوازنة

اشرح لي صدري // ويسر لي أمر لي

0101010101 // 0101010101

وارتكاز السياق الأول والثاني على نقطة ارتكازية شكلها المقطع الوسطي (لي) المتكون من صوت جانبي مرتكز في نطقه على اللثة ومقدم الحنك، أي عند النطق بهذا الحرف (اللام) يتجه النفس الى الجانبين ليرتبط في عملية النطق بحرف يتسع المجرى الهوائي للجهاز النطقي عند عملية النطق به، وهذا الارتكاز على هذا المقطع جعل البنية الصوتية للآيتين في حال توازن مقطعي، ليأتي المقطع الأخير داعماً لهذا التوازن (امري)

أثر التماثل الصوتي في التوازن الإيقاعي

د. فائزة محمد محمود المشهداني

/ صدري)، ليتعاضد الحرفان (الراء) الذي يتجه طرف اللسان فيه الى التكرير عند النطق به مع (الياء) الذي يتسع لإحتواء الهواء عند النطق به، وهذا التعاضد بين الحرفين في المقطع الأخير للسياقين خلق توازناً إيقاعاً مبعثه التوازن الإيقاعي للسياقين زائداً السمات الصوتية المكونة لأحرف المقطعين.

وقد يتولد التوازن الإيقاعي من توازٍ أوسع يمتد لا يشمل الفاصلة الفونيمية أو المقطعية، وإنما يمتد ليشمل توازيات سياقية ضمت في داخلها كل من الفونيمية والمقطعية فضلاً عن التركيب وهذا بحد ذاته يخلق بني صوتية متماثلة لا على المستوى الصوتي فقط وإنما تتسع لتشمل الدلالة اللفظية^(٢٥).

فالبنى الصوتية المتناسقة قد تأتي من خلال التوازن الإيقاعي وتكرار النبر الصوتي والمماثلة للسياقات كما ورد مثلاً في سورة الكافرين

((ولا أنتم عابدون ما أعبد * / و / لا أنا عابد ما عبدتم * ولا

011 / 0101101 / 011 01 011 01 / 010101/101101/0101011

أنتم عابدون ما أعبد))

010101/10101/0101

فهذا التكرار في البنى الصوتية وخاصة (الدال) في إسم الفاعل (عابد)، وكذلك (أعبد) جعل السياق أكثر شدة، وهذه الشدة ناتجة من النبرة الشديدة لهذا الحرف، فهو "صوت ناتج من انفتاح مخرج الصوت الشديد، وهو مكمل للصوت، لكنه يكون أكثر وضوحاً في الوقف منه في دَرْج الكلام"^(٢٦).

فالتوازي في قوله تعالى (وَكَأَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)، إذ نرى ان هذا التوازي جاء من خلال التوازي اللفظي، فضلاً عن الوزن الإيقاعي للآيتين، وكذلك من خلال الدلالة الصوتية للفونيمات المكونة للتراكيب، فالفاصلة الفونيمية تعاضدت مع الفاصلة المقطعية منتجة فاعلية في التوازي التركيبي.

المصادر والمراجع

الكتب

- الأصوات اللغوية / د. إبراهيم أنيس / ط٥ / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٧٥م.
- الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم/ د. عبدالحميد هندراوي/ ط١ / الدار الثقافية للنشر / القاهرة ٢٠٠٤م.
- بناء الاسلوب في شعر الحداثة التكويني / د. محمد عبد المطلب / (د. ط) ١٩٨٨م.
- الخصائص/ ابو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) / ط٢ / تحقيق: محمد علي النجار / مطبعة دار الكتب المصرية/ القاهرة ١٩٥٢م.
- رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء/ عني بتصحيحه خيرالدين الزركلي/ المطبعة العربية/ مصر ١٩٢٨م.
- علم الأصوات/ د. حسام البهنساوي/ ط١ / مكتبة الثقافة الدينية / القاهرة ٢٠٠٤م.
- علم الصرف الصوتي / د. عبدالقادر عبدالجليل / سلسلة الدراسات اللغوية (٨) / ١٩٩٨م.
- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث. مدخل عام / مازن الوعر / ط١ / دار طلاس للدراسات / دمشق ١٩٨٨م.
- قضايا اللغة في كتب التفسير. المنهج. التأويل. الإعجاز/ د. عبدالهادي الجطلاوي/ ط١ / دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع / تونس ١٩٩٨م.
- مبادئ اللسانيات، احمد قدورة / ط١ / دار الفكر سوريا / لبنان ١٩٦٦م.
- المدخل الى علم أصوات العربية / د. غانم قدوري الحمد / منشورات المجمع العلمي/ بغداد ٢٠٠٤م.

أثر التماثل الصوتي في التوازن الإيقاعي

د. فائزة محمد محمود المشهداني

-
-
- مدخل الى نظرية القصة. تحليلاً وتطبيقاً / سعيد المرزوقي وجميل شاكر / ط ١ / دار الشؤون الثقافية / بغداد ١٩٨٦ م.
 - المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات / لابن جني / تحقيق: علي النجدي / ناصف، ط القاهرة، ١٣٨٦هـ.
 - المنهل الصافي في العروض والقوافي / د. عبدالله فتحي الظاهر / ابن الأثير للطباعة والنشر - الموصل، ٢٠٠٧م.

الدوريات

- مفهوم النص في التراث اللساني العربي / د. بشير إبيدير / مجلة جامعة دمشق / مج ٢٣ / العدد الاول / لسنة ٢٠٠٧.
- منهج البحث الصوتي عند العرب. نقد وتحليل / د. محمد حسين الصغير / مجلة الضاد / ج ٣ / ١٩٨٩م.

الاطاريح

- الانساق البنائية في التركيب القرآني / عامر عبد المحسن / اطروحة دكتوراه مقدمة الى جامعة البصرة / كلية الآداب / باشراف د. عبد الحسين المبارك / لسنة ١٩٩٥.

هوامش البحث

- (١) مفهوم النص في التراث اللساني العربي، د. بشير إبرير، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٣، العدد الاول، لسنة ٢٠٠٧: ١١١.
- (٢) ينظر: منهج البحث الصوتي عند العرب، نقد وتحليل، د. محمد حسين الصغير، مجلة الضاد، ج٣، ١٩٨٩: ٨٦.
- (٣) المنهل الصافي في العروض والقوافي، د. عبدالله فتحي الظاهر: ١٦.
- (٤) مبادئ اللسانيات، أحمد قدورة: ١٢٣.
- (٥) ينظر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، مازن الوعر: ٦٣.
- (٦) علم الصرف الصوتي، عبدالقادر عبدالجليل: ٩٦.
- (٧) ينظر: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، عبدالحميد هنداوي: ٦٤.
- (٨) علم الصرف الصوتي: ١٥٠.
- (٩) ينظر: رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء: ٢١/٣.
- (١٠) الخصائص، ابن جني: ٢٢٧/٢.
- (١١) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ٢١.
- (١٢) ينظر: المدخل الى علم أصوات العربية: ٢٢٥.
- (١٣) ينظر: الانساق البنائية في التركيب القرآني، عامر عبد المحسن: ٤٦-٤٧.

أثر التماثل الصوتي في التوازن الإيقاعي
د. فائزة محمد محمود المشهداني

- (١٤) علم اللغة العام، الأصوات، كمال محمد بشير: ٨٧.
- (١٥) شرح الشافية، الرضي: ٢٣٥/٣.
- (١٦) ينظر: علم الصرف الصوتي: ٨٦.
- (١٧) المثل السائر: ابن الأثير: ٢٥١/٢.
- (١٨) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، ابن جني: ٢١٠/٢.
- (١٩) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ٢٣.
- (٢٠) دور الصوت في إعجاز القرآن، حازم الحلي: ١٣٧ (ضمن كتاب الإعجاز القرآني المتضمن بحوث المؤتمر الأول للإعجاز في بغداد).
- (٢١) بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكويني، محمد عبدالمطلب: ٣٧٤.
- (٢٢) قضايا اللغة في كتب التفسير المنهج - التأويل - الإعجاز، عبدالهادي الجطلاوي: ٤٥٥.
- (٢٣) علم الأصوات، د. حسام البيهناوي: ١٣٥.
- (٢٤) ينظر: المدخل الى علم أصوات العربية، د. غانم قدوري: ٧٤.
- (٢٥) المدخل الى علم أصوات العربية: ١٣٦.
- (٢٦) المدخل الى علم أصوات العربية: ١٢٢.